بلد الزبير او البصرة القديمة

Zubeir

على طف الجزيرة، وفي ظهر البصرة الحالية ، يلوح للوافد عمارة ضخمة، وابراج سور، قامت عليه مأذنة ذلك هو البلد الذي فيه «مشهد الزبير بن العوام». وهو بليدة فيها مساكن واسواق ، وعماراتها من الجص والاجر وهي على بساطتها، طيبة المناخ ، نقية السماء ، جافة الهواء ، كغيرها من البلاد العربية .

وموقعها الهندسي كموقع برج مطل على مدينة البصرة ، وهي على قربها من تلك المدينة المغمورة بسعفات النخل الكثيف ، تراها بليدة جرداء معراة في قفر خال من الغرس ، وربما وجدت في ضواحيها بعض اثلاث تكثر في المهابط العربية نعم .انهذا العراء أكسب تلك البليدة فروقا محسوسة بين مناخها ومناخ البصرة فبينما يكون السائح مغموسا في طبقات كثيفة من هواء البصرة المضغوط عليه بسعفات النخل التي عقدت عليها رواقا كثيفا ،ـ وقد تلبد بوخامة ووبالة من البخار المتصاعد من البطائح والمناقع المكتنفة به من الوجه البحري القريب منه ـ ترى الزاهق الذي يفر من البصرة الى بريه الزبير كروح تخلصت من كثافة الجسد وفاضت سابحة في الفضاء النقي حيث التربة رملية ذهبية، وحيث النسيم طلق خفاق يتموج بعذوبة ، وحيث النور الوهاج الذي يبهج القلب. نعم لاتكاد تولي وجهك شطر بليدة الزبير فارا من مدينة البصرة الا تشعر بانك قد تخلصت من المرض الى العافية .

اجل يشاهد الوافد الى قصبة الزبير جواد فسيحة تتخللها رحب واسعة والمساكن في الغالب ذات طبقة واحدة وترى الجواد متحدرة تشبه واديا ركبت على حافتيه المساكن البيض التي طليت بالجص وبعد هذه العمارة كانت خصاص واكواخ يأوي اليها الملاكون والزوار الذين نضلوا الهجرة على مواطنهم تجنبا للناس وابتعادا عن الوان المدنية زهدا وعزلة.

وقد كان اكثر اولئك المجاورين من العبيد النوبية الذين يكثرون في الجزيرة ومرابضها . وعلى اثر الحوادث الوهابية التي حصلت في نجد في غضون القرن

الثالث عشر تغير موقف مشهد الزبير تغيرا فجائيا ، وذلك لامرين مهمين اولهما ان كثيرا من البيوت النجدية التي تخلد الى السكينة وتحب العافية . جعلت مشهد الزبير مهجرا لها ابتعدت فيه عن قلاقل نجد وحوادثها فشيدوا فيه المساكن والبيوت ومن ذلك الحين نهضت فيه العمارة الفخمة. والامر الثاني ان الحكومة العثمانية حسبت حساب زحف الوهابيين الى البصرة فاخذت تحتاط الحيطة لنفسها ورأت ان مشهد الزبير كحصن للدفاع عنها في ظهرها فطوقت البلدة بسور متين وجعلت في البلدة عاملا لها واقطعته «تنومة» احدى اقطاعات البصرة . ولكن لم يكن لذلك العامل اثر نفوذ بل كانت ادارتها على قواعد المشيخة وهي نظام بسيط وادارة عربية تجري بالعادات اكثر من ان تجري بالقوانين كما ان بلدة الزبير منحازة عن البلدان العراقية في موقعها الجغرافي كذلك هي منحازة في اخلاقها وادارتها وعاداتها لم تلوثها المدنية الجديدة بادناسها وبقيت محافظة على مزاياها الفاضلة وبزتها العربية فكانك عندما تقطع تلك المسافة الهينة بين البصرة الحالية وبين بلدة الزبير او البصرة القديمة تجد نفسك قد طفرت طفرة رجعت بها الى الوراء في التاريخ والى ماوراء قرون عديدة فهذه القصبة قصبة «سلفية» واهلها «سلفيون» وكان «السلف» العربي ماثلا بجميع اطواره فيها وتاريخ تشييد السور يتصل بعام ١٢١٧ هـ (اي ١٨٠٢م) وقد اندك اليوم اكثره.

مشهد الزبير

هو بعيد كل البعد في الظهور وقد ذكره الرحالة ابن بطوطة وكثير غيره واليوم ترى كتابة رقشت على صخرة في ذلك المشهد وان هذه البناية قد جددت بامر السلطان سليم العثماني . ومشهد الزبير عبارة عن حائط في رحبة من الارض لا يلاصقها شيء من عمارة الاهلين . وارتفاع ذلك الحائط متفاوت . فمن جهة الجنوب والشمال من الحرم والسرحة ثلاث عشرة ذراعا ، ومن جهة الغرب الرحبة والشرق تسع اذرع . والحائط الجامع اربعة ابواب : من جهة الجنوب والشمال بابان ومن الشرق بابان

يشاهد الداخل الى الجامع بهوا واسعا وفي زاوية ذلك البهو مما يلي جهة القبلة شمالا قبة بيضاء معقودة على ضريح الزبير بارتفاع ١٥ مترا . وعلى الضريح

مصطبة بارتفاع مترين يحيط بها شباك خشبي مستطيل بارتفاع ثلاثة امتار . هذا هومشهد الزبير وهو عبارة عن حجرة بسيطة لاغير وعمارة الجامع حرم وسرحة اما الحرم فينشيء ست اسواق اي يكون ستة صفوف مستطيلة طول كل صف ٢٣ مترا ويتخلل تلك الصفوف سوارمن الطاباق ومجموعها ٦ سوار لكل صف من تلك الصفوف واحدة ومعقودة على تلك السواري اسطوانات من الطاباق والجص .

اما السرحة فهي عبارة عن صفين طول كل صف ٣٠ مترا معتمدة على سوار معقود عليها سقف خشبي وفي هذا الجامع مأذنة مشيدة بالطاباق والجص بارتفاع ٢٢ مترا تقريبا وهناك بئر للاستقاء منها عمقها ٢٢ مترا ويظهر ان ارض الجامع كانت منخفضة بمقدار خمس زلف .

الحويزة

Huézah.

بلدة في وسط البطائح، بين البصرة وواسط وخوزستان واول من حاز هذا البلد هو دبيس بن عفيف الاسدي وذلك في خلافة الطائع العباسي . وقد تلاعبت الحوادث على الحويزة وتعاورت وما اكثر ما تتابعت عليها اغراض الزعماء والمتغلبين . وقد تعرض لذكرها بعض الادباء المتقدمين . فقال : الحويزة ، وما ادراك ما الحويزة! ارضها رغام، وسماؤها قتام ، وسحابها جهام ، وخواصها عوام، انامنها بين هواء رديء ، وماء وبيء ...

ولم يكن للحويزة شأن كبير من اول نهوضها الى القرن الثامن للهجرة ولكن في غضون القرن التاسع برزت وظهر شأنها وذلك بواسطة المشعشع المتمهدي الذي اختار الحويزة عاصمة لامارته على البطائح لما رأى فيها من المناعة والمناسبة للموقع .

وقد كانت تابعة لحكومة شيراز فواقع المتمهدي الامير الشيرازي عدة مواقعات على ابواب الحويزة ، فشل في بعضها ونجح في الاخيرة منها فاحتل الحويزة ، وجعلها قاعدة امارته ، فعمرت وتوسعت وهكذا بقيت زاهية في كل زمان امارة الموالي . وسقط شأنها بسقوطهم . وذلك في القرن الرابع عشر للهجرة فقد انحازت

البطائح الى حكومة العراق واصبحت امارة خوزستان في بيت الشيخ جابر اميد المحمرة فنهضت المحمرة ، وسقطت الحويزة وهي اليوم قرية واهية تريد ان تنقض . وفيها بقية للموالي وبقية لنفوذهم الادبي .

هذا تمام الكلام في مدن البطائح وقراها اما واسط فسيأتي الكلام عليها مفصلا في فصل الغراف واثاره .

البطائح في التاريخ وذكر امرائها

ذكرها جماعة من المؤرخين واصحاب كتب البلدان مثل البلاذري ، وابن رسته ، واليعقوبي وابن الفقيه وابن فضل الله وابن حوقل وابن خرداذبه والحموي والسمعاني وحفيد الصابي والصفدي وابن الاثير وابن ابي الحديد والطبري وصاحب حماة والمسعودي وابن سرابيون . قال هذا ان اول البطيحة (القطر) وهو زقاق قصب نابت وبعده هور والهور هو ماء كثير ليس فيه قصب واسم هذا الهور (بحصى) وبعده زقاق قصب ثم الهور الثاني واسمه (بكمصى) وبعده زقاق قصب ثم الهور الثالث واسمه (بصرياثا) وبعده زقاق قصب ثم الهور الرابع واسمه (المحمدية) وفيه منارة حسان المعروفة بمنارة البطائح وهو اعظم الاهوار وبعده زقاق قصب وهو ماء الى نهر ابي اسد ويمر بالخالة وقرية (الكوانين) ويصب في دجلة العوراء . اه . وذكرها كثير من ادباء الفرس وكتابهم وذكرها البحتري في شعره بقوله :

حنانيك من هول(١) البطائح سائرا على خطر والريح هول دبورها
لئن اوحشتني جبل وخصاصها (٢) فما آنستني (٣) واسط وقصورها

جبل ضبطها الحموي بالضم والتضعيف وجاء في مراصد الاطلاع ص١٠٨ بالفتح بليدة في الشرقي من دجلة بغداد وهو من بقايا آثار الفرس وعمارتهم وموقعه بين النعمانية وواسط. قلت : واليوم يقع بين كوت الامارة وقصبة البغيلة وبسبب انحراف مجرى دجلة ركب الماء آثار جبل وجرى عليها فهي الان في عقيقه لا

(١) في الديوان المطبوع في بيروت ٢ : ٦٠٥ هور البطائح وهو الصواب. (ل.ع)
(٢) في الديوان المطبوع : وخصوصها وكلاهما وارد . (ل.ع)
(٣) لما انستني و « فما » هنا غلط . (ل.ع)

تظهر إلا زمن النشف (اي النشوفة) والعرب اليوم تسمي تلك الآثار جنبل بزيادة النون .

وقد اخرجت البطائح جماعات من رجالات الأدب والعلم حتى افرد لذلك تاريخ خاص فقد ذكر ان لابي العباس احمد بن يختيار الواسطي المتوفى سنة ٥٥٢ هـ كتاب تاريخ البطائح . لم نعثر على اثره مع شدة الطلب له . واخرجت البطائح رجالا كبارا لم يغفل التاريخ ذكرهم بل جعلهم في صف مشاهير الرجال فمنهم من تأمر . وهم كثير ومنهم من تقلد منصب الوزارة ومن هؤلاء ابو عبدالله المأمون ابن البطائحي وزر للامر بالله العلوي صاحب مصر . وكان هذا الوزير كريما واسع الصدر شديد التحرز سفاكا كثير الاطلاع وقد كثر الغامزون فيه واخذ يتلاعب في امر الخلافة وحاول قلبها عن مستقرها فاتصل امره بالخليفة فصلبه واخوته سنة ٥١٩ هـ .

وقد كانت البطائح من اعمال واسط مرة ومن اعمال الحويزة مرة اخرى ومن اعمال البصرة طورا ؛ وربما جمعوا واسطا والبصرة وما بينهما من البطائح في عمل واحد وربما انفصلت البطائح مستقلة كما يظهر كل ذلك من اكثر كتب التاريخ وخطط البلدان ونحن لا نذكر زمن تابعيتها في الحكم اذ لا فائدة في ذلك ولكن اليك تاريخ الامارات الضخمة التي تأسست فيها مثل امارة آل شاهين وامارة آل المظفر وامارة الرابي الخير وامارة الوالي وامارة آل سعدون وتاريخ كل اسرة من هذه الامارات مفصلا .

النجف علي الشرقي

(لغة العرب) جاء ذكر البطائح في معلمة الاسلام والمقالة لصديقنا العلامة م . شتريك البقاري . وفي خاتمتها يقول : « وفي تلك الارجاء مثل « ام الرق » (اي والدة الفسافس) في جنوبي كونت الامارة على شط الحي مشهورة بكثرة هذه الهوام التي لا تطاق » .

قلنا : ليس هناك « ام الرق » بل « ام البق » ولا جرم ان الخطأ من الطبع لا من صاحب المقال بما انه يؤولها « بوالدة الفسافس » والتأويل هنا خطأ . ومعنى « ام » هنا « ذات » والبق هنا البعوض لا الفسافس .